علماء وساسة وأدباء خرجوا من الأزهر على مر العصور

نجد أن الجامع الأزهر مر بتطورات تاريخية عديدة ما بين القوة والضعف من المدارس المتخصصة في العصر الأيوبي الذي شجّع المذهب الشافعي في مصر وشاعت المدارس المتخصصة بتدريس المذاهب وعلوم القرآن، التي شملتها الرعاية الرسمية، وأُسبغت عليها الأوقاف الجزيلة، بحيث اجتذبت كبار المدرسين والعلماء، وجعلت تنافس الأزهر أيّما منافسة. على أن الأزهر ظل محتفظاً بخبرته العلمية وهيبته التليدة، وقد توالى على عقد الحلقات الدراسية فيه جمهرة غفيرة من علماء القرون السابع حتى التاسع الهجرية (الثالث عشر حتى الخامس عشر الميلادية)، نذكر على سبيل المثال: ابن الفارض والسهروردي من المتصوفة، وابن خلدون وابن خَلّكان والمقريزي من المؤرخين وابن حجر العسقلاني.

ويبدو أن تدريس ابن خلدون بالأزهر، في العقد الأخير من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، كان طيب الأثر شائع الصيت في زمانه. وقد تتلمذ على يديه أناس غدوا من الكبار في مصر. وقد اندثرت معاهد بغداد بفعل الزحف المغولي المدمر، وقُرطُبة بسقوط الأندلس، والمغرب لانحلاله السياسي، فغدا الأزهر منارة الدراسات الإسلامية من دينية ولغوية، وكان كعبة الطلاب من البلدان الإسلامية. ولهذا نجد الأزهر يتزعم الفكر والثقافة، ويغدو صاحب نفوذ على سياسة الدولة العليا.

وقد عرف الأزهر، في عهد السلاطين الأيوبيين والمماليك، عصره الذهبي، خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، فقد انهالت عليه الهبات والأحباس، وقام السلطان الأشرف قايتباي بتجديد بنيانه والإضافة إليه، وكان الكثير من علماء العصر الذين أنتجوا الأعمال الموسوعية الكبرى هم من تلامذة الأزهر وأساتذته.

وكان لماضي الأزهر المشرق الذي تقادم عليه الزمن والذي ترك له حرمته في نفوس المسلمين كافة، كان لهذا الماضي اليد الطولى في حمايته من عبث الاحتلال العثماني وتطاوله على مظاهر التراث يستولي عليها ويبعث بها غنيمة إلى الآستانة. وازداد دور الأزهر في حماية اللغة العربية في وجه التركية، لغة الفاتحين. ومن الذين وفدوا على الأزهر خلال القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) للتدريس وأقاموا به سنين مديدة المقرّي حيث كتب، خلال إقامته في رواق المغاربة، مؤلفه الشهير "نفح الطيب".

كما وفد على الأزهر إبان القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) العلامة الزّبيدي حيث تتلمذ له الكثيرون، ومنهم الجَبَرتي المؤرخ، وهناك في القاهرة وضع الزّبيدي قاموسه الشهير "تاج العروس من جواهر القاموس". على أن شأن الأزهر ضؤل كثيراً خلال العصر التركي المظلم لنضوب موارده، وقد ارفضّ الطلاب عنه بعد أن كانوا يُعَدّون بالآلاف. وجاء نابوليون بونابرت إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر، وارتفع الأزهر في هذه المرحلة من حياة مصر، إلى مرتبة الزعامة السياسية. فهو الذي فاوض المحتلين الجدد عقب اندحار المماليك وإدبارهم، وبيد مشايخه

وعلمائه كان زمام الدواوين الثلاثة التي نشأت خلال الحملة الفرنسية التي لم تعمّر أيامها طويلاً (١٧٩٨ ــ ١٨٠١م).

ومن صحن الجامع الأزهر تعالت صيحة الثورة الشعبية على المحتل ومغارمه، وتنكيله، ومن أفواه بعض المعممين انطلق الهدير عبر الخطب النارية. فانصبّت المدافع ناراً حامية على الأزهر والأحياء المحيطة به، واقتحمه الفرنسيون بخيولهم، بعد أن هدموا متاريس المقاومة. أما قادة الثورة من مشايخ الأزهر فقد أُعدموا بالقلعة واحتُزّت رؤوسهم.

وعندما ضيّقت سلطات الاحتلال الخناق على الأزهر، إثر مقتل الجنرال كليبر على يد السوري سليمان الحلبي، أحد الطلاب المنتمين إلى رواق الشام في هذا الصّرح التاريخي، عمد القائمون عليه من المشايخ والعلماء إلى إغلاقه وتسميره، وذلك لأول مرة منذ ثمانية قرون ونصف خلت، لأنهم وجدوا أن الدراسة فيه غدت متعذرة، فامتد إغلاقه زهاء عام إلى أن زالت غمّة الاحتلال.

دور "محمد علي الأزهري" :

وعندما أمسك محمد علي بزمام الأمور في مصر لم يكن الأزهر مشايعاً، برغم أن علماء الأزهر لعبوا، غير مرة، دوراً في تولية محمد علي وتوطيد ولايته. فهذا الحاكم الجديد الطموح كانت أنظاره تتجه شطر أوروبا ونُظمها المتقدمة، في حين أن الأساليب الأزهرية في التعاطي مع العلم والثقافة لم تكن مجدية ومستقبلية. فآثر إهماله وعدم مبادرته بالتحديث والعصرنة، وقد وجده حصناً للمحافظة والجمود.

وعلى الرغم من ذلك شارك الأزهر منذ العام ١٨٢٦ في بعثات محمد علي العلمية إلى أوروبا، فأرسل مشايخه في تلك البعثات، ومنهم رفاعة الطهطاوي وأحمد حسن الرشيدي وإبراهيم البزاوي وغيرهم. وفي أوائل عهد الخديوي عباس قاد الشيخ محمد عبده حركة إصلاحية كان من بين نتائجها صدور أمر خديوي بتشكيل لجنة إدارة دائمة للعناية بالأزهر وشؤونه ووضع القواعد والنظم والمرتبات، كما أضيفت مواد جديدة للدراسة من أهمها الأخلاق ومصطلح الحديث والجبر والحساب ومبادىء الهندسة.

وفي صيف ١٨٨٢ أصدر كل من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوي والشيخ محمد أبو العلا فتوى شرعية بمروق الخديوي توفيق ووجوب الدفاع عن البلاد ورفض أمر الخديوي بعزل أحمد عرابي، ولذلك نال علماء الأزهر نصيباً موفوراً من السجن والنفي بعد هزيمة الثورة، فتم نفي الشيخ محمد عبده، والشيخ حسن العدوي والشيخ محمد القياتي.

وعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ التي قادها سعد زغلول الأزهري النشأة، شارك طلاب الأزهر في أحداث الثورة، شأنهم شأن غيرهم، بل واجتمع القساوسة والمشايخ داخل الأزهر وتناوبوا الخطابة والتحريض على الثورة ضد الاحتلال. وفي العام ١٩٦٥ اختار جمال عبد الناصر الجامع الأزهر ليعلن من فوق منبره صيحته المدوية ضد العدوان الثلاثي.

ويقول نجيب محفوظ، إن وظيفة الأزهر هي نشر الإسلام وحمايته. وكجهة مهمتها الدفاع عن الدين، وعلى الأدباء تجنب استفزازه. ومن الممكن ممارسة حرية الإبداع دون المس بالدين.

لا ننسَ أيضاً أن الموسيقى خرجت من الأزهر على أيدي الشيخ سلامة حجازي والشيخ زكريا أحمد والشيخ سيد درويش والشيخ زكريا صبح. والأزهر قاد الحركة الوطنية، وكان رمزاً لوحدتها.

ومن فوق منبره خطب القس سرجيوس في ثورة ١٩١٩، منطلقاً من كنيسته بالفجالة حتى دخل الأزهر وسط الجموع وبدأ خطبته "بسم الله الرحمن الرحيم" .

وفي القرن العشرين عاش الأزهر مناخين: المناخ الليبيرالي ما قبل ثورة تموز، ١٩٥٢ الناصرية، حين كانت أجواء الحرية والتسامح مسيطرة من منطلقات ثورة ١٩١٩ التي دعت إلى الحرية الداخلية والتحرر الخارجي. في خلال هذه الفترة وقعت حادثتا اصطدام بين رجال الفكر والأزهر. الأولى، الخلاف على كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي". والثانية، الخلاف على كتاب علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم ". وكلا الكاتبين شيخ من شيوخ الأزهر.

وللأزهر فضل كبير في الحفاظ علي التراث العربي بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد وعلى اللغة العربية من التتريك واللغة التركية أيام الإحتلال العثماني لمصر سنة ١٥١٧م وأيام محمد علي باشا سنة ١٨٠٥.